ضمن بين سجوف النافذة

مشاهدات وتأملات

بقلم الخوري اسطفان فرحات اللبناني

يا ما اقلقها حركة في شوارع هذه الحاضرة! ويا ما آلمها ضجة! يكاد يختلط فيها الحابل بالنابل لما يكاد يذهب برشد الانسان ويضعضع افكاره.

كنت آخذاً باتمام عمل فكري، باشرته رغم كل ازعاج — لاني تعودت ان لا أرجئ عملاً، لا بدّ منه مفعولاً، الى ساعة متأخرة — ولكن، لم يكن من تلك الحركة وهذه الضجة الا ان افسدتاه عليَّ، فتأخرت عن انجازه لوقت، وقت الى نافذتي، وكانت الساعة السادسة مساء، فاخذ مني الاندهال لما رأيت الناس، على اختلاف الاعمار والاطوار، يتقلبون في عرض ذلك الشارع، ويزدحمون عند مفترقاته، تباغتهم السيارات بصفيرها المقلق، والعجلات بقرقعة دواليبها المزعجة، كأنما مشاهد روائية هائلة، وممثلوها بين اقبال وادبار... كذلك كان المارّون في الظهور والاختفاء. فلا اكاد اتبين الواحد منهم، حتى يأخذ في الوجهة التي يقصدها من شطاب ذلك الشارع الطويل، فيختفي عن نظري بين منحنياته.

وفيما انا كذلك، واذ استلفت نظري مشهد من بين تلك المشاهد الكثيرة، وهو ان رجلاً وامرأةً، واظنها زوجين، كانا يمسكان ابنة صغيرة من يديها، لم تشهد بعد الربيع العاشر من الحياة. فلم ارتب اذ ذاك، انها ابنتهما. اما ملابسهم، فكان جمالها يستوقف النظر، الا لباس الام، فكان ينبو عنه نفوراً، ولا حاجة الى وصفه...

وكأني بالزوج لم يكن ليؤثر عليها بارتداء غيره مما يكمل هيئتها ويجعلها محترمة بعين ذوي الكمال، بل تركها وشأنها والازياء المصرية. وكأنهما ارادا ان يخططا الطريقة التي هما ذاهبان في شأنها مع ذلك الملاك الصغير، فوقفا يتحدثان تحت نافذتي، بصوت كانت تصرف نبراته عن مسمعي كثرة الجلب المقلق. ثم سارا وهما يسحبان تلك الصغيرة سحباً، وهي تعول وتضرب الارض برجليها،

كأنما تحاول الفرار منهما ، فيحنوان عليها الفينة بعد الفينة ، تارة الاب وطوراً الام ، كأنهما يريدان اغراءها ببعض الالعاب لتسير برضى . فجال بخاطري ، والحالة هذه ، شتى الخواطر ، وكان اعجلها اليه ان هذين الابوين ذاهبان الى احد المعابد لحضور حفلة الصلاة ، وقد حاولا اخذ الصغيرة معهما ليحملاها على ائتلاف هذه العادة المقدسة . اجل ان هذه اول خاطرة جالت بفكري لتبرئة الابوين من اللوم ، في مثل هذه الاحوال ، وان تلك الصغيرة ما كانت تحاول الافلات منهما الا لانها تركت العابها ودماها الجميلة ، ومما لا شبهة فيه إن الصغير لا يعبأ بالتعليلات مهما يكن من امرها ، بل قد يضحي بها جميعها فداء العابه الصبيانية . ولولا ما استدللت عليه من عدم احتشام المرأة بملابسها ، مما ادخل علي الريب في تحقيق هذه الخاطرة ، لكانت النفس اطمأنت اليها ، لاسيما وقد تأكد عندي انها من الزم واجبات الآباء نحو البنين . لذلك عولت عنها الى خاطرة اخرى وهي : انهما خرجا لزيارة احد المرضى في ذلك الحي ، او على الاقل لزيارة احد ذويهما او اصحابهما حيث يستأنسان به بعض ساعات ، يتحدثون جميعاً بما يعود عليهم بالنجح والخير ، لاسيما وان دليلاً حضرني في تلك الساعة ازال بعض ما بي من الريب وهو ان ذلك الزوج ربما كان مستغرقاً في عمله طيلة النهار ، وان امرأته لم ترد ان تغادر البيت الا وتستصحبه معها كأنهما قد تعاهدا على انجاز مقتضيات الحياة ، فلا ينغص الواحد عيش الآخر ، ولا يكدر عليه صفو راحته ، لذلك قد انتظرته حتى هذه الساعة المتأخرة من النهار ، فوالحالة هذه ، كان لا بدّ لهما من ان يعلما ابنتهما هذا العمل المبرور ويمرناها عليه منذ الصغر .

فالى هذه الخاطرة كادت تطمئن النفس . الا ان طمعها بحب التنقل بين الافكار دفعني الى ان اتعداها ايضاً الى غيرها ، فقلت : اذاً ، ربما كان خروجهما في مثل هذه الساعة ترويحاً لافكارهما من مشاغل الحياة ، فهما يقصدان الخلاء في ضواحي هذه الحاضرة طمعاً بالإعتزال ، ولو بعض ساعات ، عن هذه الضوضاء المملة التي تكاد تفسد على الانسان جميع اعماله ، فتدفعه الى الانزواء بين الرياض والبساتين ، حيث تنعم الابصار بمرأى جمال الطبيعة الفتانة واذن فلذلك قد خرج هذان الابوان يستصحبان ابنتهما معهما ليحملاها على حب الاعتزال منذ

الصغر ، سيما وان في المخالطة خطراً عظيماً على الاخلاق السليمة . الّا ان ريبي في هذه الخاطرة ايضاً لم يكن باقل من ارتيابي في الخاطرتين الاوليين ، فتحيّرت ، والحالة هذه ، الى اي الافكار اطمئن رفقاً بالابوين المذكورين ، وكانا قد اختفيا عني مع ابنتهما في احد مفترقات ذلك الشارع . وكان وقوفي قد طال الى الساعة السادسة والنصف ، فانكفأت راجعاً الى عملي الاول الذي كنت ابتدأت فيه احاول انجازه ، فاكببت عليه بكل همة ونشاط . وما هي الّا ان دقت الساعة الثامنة حتى انتفضت كمن استفيق من غمي ، فاسرعت الى النافذة ، أسرّي عني بمرأى حاتيك المشاهد . وفي الحال عادني ذكر ذينك الابوين وصغيرتهما . وفيما انا كذلك واذ لاحوا لي على بعد بضعة امتار ، راجعين من حيث ذهبوا ، في ذلك الشارع ، وكان قد اضيء بالانوار الكهربائية ، كانها نهار جميل ، الا ان الابنة ، في هذه المرة ، كانت تتقدم ابويها بضع خطوات . وما هو الّا ان وصلوا تحت النافذة ، واضطرهم الازدحام الى الوقوف ، حتى سمعت الصغيرة تقول لامها ، وهي تجذبها من طرف ردائها لتنتبه اليها : ماما ، ماذا اقول للراهبة غداً اذا سألتني ، اين قضيت السهرة ؟

— قولي لها انك كنت في البيت ، مع اخوتك .

— وكيف اكذب عليها ، وهي تعلمني الصدق ، وتعاقبني اذا كذبت ، هل دار السينما بيتنا ؟ ؟

— لا بأس في ان تكذبي هذه المرة ايضاً والّا فلا تتخلصين من القصاص .

— واذا قالت لها احدى رفيقاتي ، ممن كنّ حاضرات ؟

— لا يقلن ، لان امهاتهن يحذرنهن من ذلك ايضاً .

— وربما قال لها احد الصبيان الذين كانوا حاضرين ؟

وكأنها اضجرت الام بهذه المجادلة ، فرفعت هذه يدها وانتهرتها قائلة :

— كفى مماحكة ، سيري بنا ! !

وفيما هم يهتمون بالمسير اذ لحق بهم شاب لم يزل بعد في مقتبل العمر ، عليه من مسحة الجمال ما جعله يتباهى معجباً بنفسه ، فاسترقهم ، وبعد المصافحة دار الحديث بينهم بشأن السينما ، بينما كان هذا حديث جميع الناس العائدين اذ

ذاك .) في ذاك الشارع ، الّا اني لم انتبه الّا الى حديث الشاب المذكور مع من نحن في صددهم . وقد ظهر لي في بدء حديثه معهم انه من ذوي قرباهم ، او هو احد اصحابهم ، لما كان فيه من « رفع الكلفة » ولكن مـا عتّم ان اتضح لي انه لا يمتّ اليهم ولا بأي نسب كان ، بل ربما كانت المرة الاولى التي يجتمع بهم فيها . فقال :

— كيف وجدتم « فيلم » هذا المساء ؟

المرأة : جميلاً جداً ، وهل كان على ذوقك ؟

— كيف لا ، والسينما هي حياة النفوس ، وغذاء العقول ، تسكب عليها من روح تعاليمها السحرية الملأى من الحرية والحب ، وتمثل لها بادوارها الجميلة احسن الصور التي هي غاية شباب هذا العصر .

الزوج : ولكنها تسرف كثيراً باطلاق الحرية الذاتية ! !

المرأة : ليس فيها اسراف البتة ، فيجب ان لا تؤسر عواطف المرء ما دام خُلق حرّاً .

وهكذا طال الحديث بينهم ، والابنة صاغية الى ذلك تمام الاصغاء ، كانها هي مدهوشة من هذه التقاريظ التي لم تكن لتوافق ما سمعته عن السينما في مدرستها . ثم توادعوا ، وهمّ كل بالانصراف في الوجهة التي يقصدها ، وما زالوا يتبادلون النظرات والاشارات ، حتى تواروا عني في معاريج الحي .

فرجعت الى نفسي عندئذٍ ، متهكماً عليها لافتراضها ما لم يكن لينطبق على ذينك الابوين فقلت : اذن هي السينما « منى » الآباء الذين تبهجهم مشاهدها ، فيضحّون بفلذ اكبادهم على مذابحها .

وهي « غاية » الشباب الذين اسكرتهم حميّا الملاذ ، فجعلوها مصيدة لاقتناص الاخلاق ، وتأكدت عندئذ ان تلك الصغيرة كانت تحاول الفرار من ابويها ، كما تقدم ، لخوفها الاحترامي من معلمتها ، تلك التي طالما اجهدت نفسها وما زالت تضحي بكل عزيز لديها في سبيل ترقية اخلاق تلك الصغيرة وامثالها شارحة لهنّ التعاليم المقدسة ، والوصايا الالهية لتقصيهنّ عن ارتشاف تلك الكأس المداوفة سمّاً زعافاً ، اعني بها السينما .